جاك بيرك رأس بوجمين:
منهج والرؤية

فتح الله محمد
المركز الجامعي تيسمسيلت

بوفاة جاك بيرك لم يعد الاستشراق الفرنسي وحده الذي أضحى على المحك، بل حتى بيرك نفسه بات مشهورا بالنقد الموجه له. بالطبع لا تزال توجد في الدول العربية من يمدحه ويعظم إنتاجه الاستشراقي. لكن هذه الاتجاهات المادحة له لم تعد مسيطرة. فالانتقادات الموجه إليه والمواقف المناهضة له قبل مماته وبعدها أصبحت ملحوظة وسائدة في الأجواء الأكاديمية العربية خاصة.

السيرة العلمية لجاك بيرك:

لقد أتاحت مدينة فرندة (ولاية تيهرت) لجاك بيرك مناخا مثاليا متعدد الثقافات، الديانات، اللغات، والأجناس أثناء الفترة الاستعمارية الفرنسية من جهة، كما أتاحت له، من جهة أخرى، أن يختلي في الكتّاب من أجل حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية وهو جالس على ركبتيه يحمل لوحته وقلمه ليكتب ويرتل آيات القرآن الكريمة على يد شيخه (صغير سي الحبيب الجبلي). هكذا نفهم كيف أن والد بيرك كان على دراية تامة بأهمية القرآن واللغة العربية في تسيير شؤون المسلمين في العالم الإسلامي–العربي عموما، والجزائر خصوصا، بل بين العالم العربي والغربي. وكل هذه الأشياء تتضافر وتتشابك لتسهم في بناء "العالم البيركي" (Berquien L'univers)، وهذا العالم يدعمه الشعار البيركي "نحن لا نعيش إلا من أجل الآخر وبفضل الآخر"[1]. بمعنى حضور الغرب في الشرق وحضور الشرق في الغرب.

ومما هو جدير بالذكر أن بيرك هاجر ومعه هذا العالم متجذرا في ذهنه إلى المغرب الأقصى ثم العراق مرورا بمصر ولبنان. وينبغي أن نعلم أن مسيرة بيرك انقسمت إلى مراحل:

1- المرحلة الأولى: وتسمى "بالمرحلة المغاربية"، وخاصة عند انتقاله إلى المغرب الأقصى عام **1934**، حيث شغل منصب مراقب مدني للمحاكم الأهلية المغربية (**1934–1937**). ثم نائبا للمجلس البلدي لمدينة فاس (**1937–1940**). والتحاقه فيما بعد بالإدارة العامة للانتداب بالرباط (**1943–1945**). بيد أن تحفيزه للأهالي من أجل تبني برنامج إصلاحي لتحديث الزراعة، جعلت الإدارة الفرنسية تنفيه إلى الأطلس العالي (**1946–1953**).

2- المرحلة الثانية: انتخب من أجل شغل كرسي الأستاذية "التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر" بالكوليج دي فرانس (**1957-1982**)، كما عمل أيضا لدى منظمة اليونسكو بمصر، ففتح له باب المشرق العربي، وهذا طبعا وسع له موضوع دراسته من المغرب العربي إلى المشرق العربي، بمعنى من جبال الأطلس إلى وادي الفرات. كما انتخب بيرك عضوا بالمجمع اللغوي بالقاهرة.

3- المرحلة الثالثة: تميزت هذه المرحلة بتقاعده عام **1982** حتى وفاته يوم **27** جوان **1995.** حيث قام بمحاولة ترجمة معاني القرآن، وتصادف ظهور هذه الترجمة مع حرب الخليج الأولى.وقد خلف جاك بيرك وراءه أعمال خالدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- "البنى الاجتماعية الأطلس العالي"، 1955 (Structure sociales du haut-atlas)
- "التاريخ الاجتماعي لقرية بمصر في القرن العشرين" 1958،

(Histoire sociale d'un village égyptien au XXe siècle)

- "العرب بين الأمس والغد"، 1960 (Les Arabes d'hier à demain).
- "مصر، الإمبريالية والثورة"، 1967 (L'Egypte impérialisme et révolution)
- "الشرق الثاني"، 1970 (L'orient second)
- "العرب"، 1973 (Les Arabes)
- "من وادي الفرات إلى جبال الأطلس، 1978، (De l'Euphrate à l'Atlas)
- "القرآن، محاولة ترجمة من العربية، متبوعة بدراسة تفسيرية"،

1990، (Le Coran, essai de traduction de l'arabe, suivi d'une études exégétique)

- "إعادة قراءة القرآن"، 1993 (Relire le coran)
- "أيُّ إسلام"، (Quel Islam?)

منهج جاك بيرك

كثيرا ما ينظر إلى جاك بيرك على أنه أراد الجمع بين الشمال والجنوب، الجمع بين المشرق والمغرب، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكل هذا يؤكده قوله: "أقول أنا صاحب جسر بين شاطئ الشمال وشاطئ الجنوب، وأنا "عابر الضفتين" كما سموني مؤخرا، وهو أمر صحيح..."[2]. كان ذلك طبعا إيذانا بميلاد جيل جديد من المستشرقين تخطى ربما مفهوم الاستشراق القديم. وإليك الاستشهاد البيركي الذي يزيد الكلام قوة وإقناعا كما يزيده وضوحا عن الفرق بين الاستشراق الجديد والقديم، حيث يقول بيرك: "يعكس رؤية الشعوب الغربية للآخرين وكان دور الاستشراق يقتصر على إفهام أبناء مجتمعهم ما هي الشعوب الشرقية وما هي حضارتها. أما جيلنا فحاولنا أن نغير من ذلك التقليد ونجعل من الاستشراق وظيفة تفاهم متبادل بين شعوب العالم، بحيث يقدم كل واحد فهمه للآخر وفي هذا الحال يطلب منه إما يقبله أو يكذبه أو يصححه"[3]. وقد نجانب الصواب عندما نذهب إلى القول أن منهجية بيرك منافية لما يسمى تقوية المركزية الأوروبية، ومضاد أيضا لفكرة صراع الحضارات.

ولعلى هذا ما دفع بيرك لهجر "الموقع الكلاسيكي" المتموضع خارج الشرق بالنسبة للمستشرق، وتبنى بالمقابل "موقع جديد" متموضع داخل الشرق، وهذا التموضع الجديد سيغير من دون شك زوايا النظر والنتائج المتوصل إليها من طرف المستشرقين. فضلا عن احترام الآخر، وإقفال الخلافات التاريخية بين الغرب والعرب، والدخول في عهد جديد عماده الحوار الفعال، طبعا هو مشروع يهدف إلى "تحقيق عالم يخلو من ويلات الحروب، ولا يعرف كوارث التعصب والتطرف، عالم يتغنى بالتسامح، ويثري بوحده التنوع الخلاق، ويسعى إلى السلام سعيه إلى التقدم الذي يعم الانسانية كلها"[4]. ويبدو أن هذا المشروع الحضاري الذي يريد بيرك تطبيقه، قد سبقه في ذلك غوته (Goethe) منذ بدايات القرن التاسع عشر، إذ يقول هذا الأخير: "الشرق والغرب لا يمكن أن يفترقا... وإذن فالتحرك بين الشرق والغرب هو الملك الأفضل."[5]. والذي يمكن استخلاصه من هذا القول أن بيرك تأثر واستند على روح الأنوار الأوروبية. وما دامت الأمور على هذا النحو فإن "جاك بيرك يمثل خط وصل بين ضفتي المتوسط، بوتقة أين تختلط وتذوب بداخلها كل الحضارات المختلفة"[6]. وبهذا المعنى يمكن القول أن بيرك أراد أن يجعل من حوض البحر الأبيض المتوسط مركزا لحضارة عالمية جديدة، وهذا ما يؤكده قوله: " أنا مستقر وثابت على شروعي عن حضارة المتوسط وأندلس جديدة"[7]. ومحاولة ترجمة معاني القرآن لبيرك ما هي إلا دليل صارخ على مدى أهمية هذا العمل المهم. وكيف أنه بعث من جديد تحت أبصارنا اليوم التبادل الثقافي الخصب بين الثقافة العربية الإسلامية وبين أوروبا الغربية[8]. وهكذا فمقربة بيرك تدعو للحوار بين الأنا الغربية والأخر العربي.

الرؤية الاستشراقية لجاك بيرك

يتعين علينا بعد إبراز مقاربة بيرك واحترامه للآخر العربي، أن نرجع إلى إبراز وجهه الآخر الخفي.إذ يتعين علينا إبراز مقاربات بيرك ورؤيته الاستشراقية، قصد إثبات أن لجاك بيرك وجهان: وجه يحترم الآخر من ناحية، ومن ناحية أخرى وجه يخدم قضية بلده خصوصا والغرب عموما ضد العرب والإسلام.

ومن الخطأ أن نعتقد أن بيرك كان صديقا مخلصا للعرب والإسلام. وأكبر دليل على هذا الخطأ أو الوهم أنه يمكننا أن ننظر إليه من زاوية مختلفة. ومن هنا ندرك أن هناك وجه آخر لبيرك وخير دليل على ذلك قوله:"وعلة كتابي هذا أيضا–التقصير من حيث أنه يهتم خاصة بالأراضي العريقة التي ترسم، من الأقصر إلى البصرة، قوسا دائريا مركزه الصحراء ويستهدف سهمه فرنسا"[9]. مثل هذه المواقف التي تضم في ثناياه رؤية استشراقية مثيرة للجدل، تجعلنا نشك في نواياه.

ولقد سئل مرة بيرك عن تسميته مستشرقا فرد قائلا: "رفضت طويلا تسميتي بمستشرق، أعترف اليوم أنني قبلت هذه التسمية،والتي كانت منذ صدور كتاب ادوارد سعيد، تضامنا مع زملائي الذين رأيت فيهم أنهم هجموا ظلما"[10]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على هجومه لما جاء به ادوارد سعيد في كتابه المثير للجدل "الاستشراق"، والذي فضح فيه الرؤية الاستشراقية، وذلك بتشريحه للاستشراق التقليدي.ومن الواضح أن بيرك انظم إلى صفوف المستشرقين تضامنا معهم ودعما لهم، بل والسير على نفس الدرب الذي شقه المستشرقين الأوائل.

وقد يتضح هذا أكثر في قوله:"والحال أن المستشرقين درَسوا العلماء العرب المناهج الجديدة لدراسة النصوص وذلك بالاستجواب والاستقراء وانطلاقا من الدلائل، وبحث واكتشاف المصادر، وباختصار النقد التاريخي، كل هذا انطلق من الغرب ثم وصل إلى العلماء المسلمين... استوعبوا المنهج النقدي من أساتذتهم الغربيين. هذا ما يظهر أنه أهم إسهام للاستشراق: قيمته الرائدة والتعليمية (التكوينية)، بالإضافة إلى عدد من الإسهامات الأساسية، كسيلفستردى ساسي، وجولد تسيهر، ماسينيون وآخرون"[11]. لا ريب أن بيرك دعم الرؤية الاستشراقية لأن" تنوع رؤاهم الفلسفية ومناهجهم واختلافها لم يكن أبدا خارج الإطار الذي كانوا يتحركون داخله والذي كانوا يعملون جميعا على تقويته وتعزيزه، إطار المركزية الأوروبية"[12]. في مثل هذه الأحوال، وضمن هذه الشروط، تبرز مهمة بيرك التي أصبحت تدعم هذه الرؤية وذلك بجعل الغرب ك "ذات" والعرب ك "موضوع" لهذه الذات.

ومهما يكن من أمر فإن قول بيرك السابق ذكره، يهدف إلى قول أن معلمي وشيوخ العرب هم المستشرقين، بل هم من أحضروا للعرب المناهج الحديثة، التي ساعدت العلم العربي. في الوقت ذاته لا يمكننا حسب حجج بيرك أن ننقد الاستشراق، لان"نبذ الاستشراق–أي جزء من المعرفة الغربية–هو رهان إنكاري، لا يدافع عنه، حرض... بنبذ الغرب ما هو أكثر شرعية، أي الروح، والاحتفاظ كليا بما هو أقل شرعية، أي المادي، في الواقع، لا نرى أحدا في الشرق يرد الطائرات، الحواسب والسيارات"[13]. وينبغي أن نعلم بهذا الصدد أننا نحن العرب لا نستطيع استعارة المنهج العلمي الغربي دون أخذ الرؤية معه لأن "كل منهج يصدر عن رؤية ولا بد: أما صراحة وأما ضمنا. والوعي بأبعاد الرؤية شرط ضروري لاستعمال المنهج استعمالا سليما مثمرا...الرؤية تؤطر المنهج، تحدد له أفقه وأبعاده، والمنهج يغني الرؤية ويصححها"[14].هكذا نفهم كيف أن ما انتجه بيرك سيوضع دون شك على المحك لأنه انجاز لمعسكره الغربي في المقابل العرب والإسلام.

وسوف نضيف ملاحظة أخرى إلى كل الملاحظات السابقة من أجل فضح الرؤية الاستشراقية البيركية، والتي ستقوده إلى إنتاج محاولة لترجمة معاني القرآن الكريم وذلك بعد تقاعده، وقد احتاج بيرك لانجاز هذا العمل الصعب

إلى خلوة، وكانت بيت العائلة القديم بـ Saint-julien-En-Borne (Landes). فلماذا اختار هذا المكان بالذات؟ هذا ما سيجيب عنه بيرك بقوله:"إذ إن كل الحقائق تجتمع :هذه الدار القديمة أين عشنا سنوات العمل، في وسط قروي محلي جنوب غرب فرنسا، مرحلة ألف سنة. على طريق القديس–جاك دى كومبو ستيل"[15] وقد نلجأ إلى تعليلات نبرز بها موقفنا من الأمر كأن نذهب إلى القول ان مزار القديس دي كومبو ستيل بأسبانيا محاط بالبركات حسب الاعتقاد المسيحي، وكان في العصر الوسيط القرن الحادي عشر، وهو محاج تردد عليه المسيحيين اللاتينيين، كما كان ثالث مكان مقدس بعد القدس وروما، وكان المسيحيون آنذاك يمرون على قرية بيرك حتى يصلوا إلى المزار، والذي تبلورت حوله فكرة حركة الاسترداد ثم ميلاد فكرة الحروب الصليبية. ولا شك أن هذا الطريق أو القرية المحاطة بظلال التاريخ الوسيط والمشبعة بالكراهية للعرب والمسلمين، هو الذي ساعد وتغذى منه بيرك، واستند عليه حتى يقوم بمحاولة ترجمة معاني القرآن. وكثيرا ما نظر إلى بيرك على أنه صديق للعرب وعابر الضفتين، بيد أن ما سبق ذكره يؤكد أنه تخلى على الضفة الجنوبية في مقابل تشبثه في كبره بالضفة الشمالية، بل أحي بيرك الصراع المسيحي– الإسلامي القروسطي. ولذلك نجعل هذه الرؤية الاستشراقية نصب أعيننا كلما أردنا القيام بقراءة إنتاج المستشرقين سواء كان جاك بيرك أو غيره. فعلينا أن نتصادق مع الذئاب المهم أن يكون فأسك مستعد (مثل روسي).

الهوامش

1-Voir: Meriem Mahmoud, «jacques Berque en l'incitation, au dialogue des civilisations», journal le quotidien d'Oran, N° 1430, Algérie 10 juin 2009, p. 08 «la présence des arabes en nous et nous dans les arabes».

2- احمد الشيخ، حوار الاستشراق، المركز الغربي للدراسات العربية، ط1، 1999، ص. 25

3- المرجع نفسه، ص .30

4-جابر عصفور "حوار الحضارات والثقافات"، كتاب في جريدة، عدد 101– الأربعاء 3 كانون الثاني (يناير 2007)، أصدرته منظمة اليونسكو UNESCO، النهضة MBI Fondation المؤسسة الراعية– الشريك الثقافي اليونسكو بيروت، ص. 05

5-جيته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، (د.ت)، ص.399

6– Meriem Mahmoud, «jacques Berque en l'incitation au dialogue des civilisations», Op. cité, p. 08 «jacques Berque représente le trait d'union entre les deux rives de la méditerranée, creuset ou se mêlent et se fondement différentes civilisations»

7-احمد الشيخ، حوار الاستشراق، مرجع سابق، ص.26

8-انظر: جاك بيرك، إعادة القران الكريم، ترجمة: وائل غالي، دار النديم للصحافة والنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص.12

9-جاك بيرك، العرب من الأمس إلى الغد، ترجمة، علي سعدن دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1982، ص 07.

10–Thierry Fabre, «entretien avec jacques Berque au –delà de l'orientalisme», la revue Qantara, N° 13, Institut du Monde Arabe, Oct.Nov.Dec1994, Paris, p.45 «j'ai longtemps refuse de m'accepter orientaliste, j'avoir que si maintenant j'accepte cette appellation c'est depuis le livre d'Edward Saïd par solidarité avec des collèges que je voyais injustement attaqués»

11- Thierry Fabre, «entretien avec jacques Berque au delà de l'orientalisme» Op. cité, p. 45 «or les orientalisme ont enseigné aux savant arabes les nouvelles méthodes d'études des textes, de questionnement et d'induction à partir d'indice, de recherche et de découverte de sources, bref critique historique. Toute cela est parti de l'occident puis est assure aux savants musulmans… assimilé de leurs maitres occidentaux l'utilisation de la méthode critique, c'est ce qui parait être le principale apport de l'orientalisme : sa valeur pionnière et

formatrices, outre un petit membre d'apport fondamentaux, Silvestre de Sacy, Goldziher, massignon et quelques autres ».

12- محمد عابد الجابري، "الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية: طبيعتها ومكوناتها الإيديولوجية والمنهجية" 1،في كتاب مناهج المستشرقين، ج1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلم، تونس، 1985، ص.319.

13-Thierry Fabre, «entretien avec jacques Berque au delà de l'orientalisme » Op. Cité, p.p. 40-41 «le rejet de l'orientalisme c'est -à- dire d'une partie de la connaissance occidentale- pari négatif, insoutenable. Il induisait…à rejeter de l'occident ce qui est le plus valable c'est- à – dire l'esprit, tout en retenant ce qu'il l'est moins, c'est- à – dire le matériel. En effet, on ne voit personne en orient rejeter les avions, les ordinateurs et les automobiles.»

14- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993 ص 26.

15-Le coran,Essai de traduction par Jacques Berque,Edition Albin Michel, s.a, Paris, 1995, p.15.

«car toutes les authenticités se rejoignent.
celle de la vieille maison ou nous vécûmes ces années de travail, dans un terroir villageois du sud-ouest de la France, étape millénaire sur la route de Saint-Jacques de Compostelle».